الماجدة.. ذكرياتٌ بلا حبرٍ و ورقٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

من أقوال المجاهد عبدالله البرغوثي:

لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته لقد كان فيكم للحرية عنوانا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

2012م – 1433هـ
بيروت – لبنان

تصميم وإخراج وطباعة
Golden Vision sarl +961 1 820434

فهرس المحتويات

المقدِّمة 7

الإهداء 9

الفصل الأول: بداية النهايات 11

الفصل الثاني: وداعاً أوراقي 23

الفصل الثالث: اللقاء الأول 33

الفصل الرابع: صباح الخير 45

الفصل الخامس: وداعاً طفلتي.. وداعاً مؤمن 55

الفصل السادس: وداعاً مخيم جنين.. وداعاً نور 65

الفصل السابع: نورٌ ونور وأمل 73

الفصل الثامن: فرحةٌ بعد غصّة.. وغصةٌ بعد فرحة 83

الفصل التاسع: ذكريات الأرقام والأعداد 93

الفصل العاشر: سرابٌ أم حقيقة 103

الفصل الحادي عشر: فجر الحرية وكسر القيد 113

المقدِّمة

الماجدة هي قصة فتاة أبحرت ببحرٍ هائجٍ ذي عواصف رعدية ماطرة، كادت أن تغرق المرة تلو الأخرى، إلاّ أن تمسّكها بإيمانها المطلق بالله عزّ وجلّ مكّنها من الوصول إلى شاطئ السلامة والحرية.

مشاكسةٌ ثرثارة هي الماجدة أحياناً... وصامتةٌ حزينة هي الماجدة أحياناً أخرى، تتقاذفها أمواج بحر الظلم والقسوة والإحتلال.. بحرٌ مليء بصخور الألم والحسرة والقهر.. بحر عجز أقوى الرجال عن خوضه، إلاّ أن الماجدة خاضته رغماً عنها تارةً وبرضاها تارةً أخرى.. الماجدة هي أم الشهيدة وزوجة المقاوم، وهي المقاومة زوجة أبي الشهيدة.. وهي أم نور وأمل.. وهي أيضاً النور والأمل.

كتبت هذه الرواية، وأنا بداخل قبو زنزانة العزل الإنفرادي، الذي أمكث بداخله منذ عام 2003 وحتى يومنا هذا... كتبتها وأنا أبحث عن الأمل والنور، بعد أن تبدّد الوهم المتبدد، وبقيت وحيداً فاقداً نور الشمس التي ما عدت أذكر شكلها، فاقداً الأمل في الحرية التي نسيت طعمها؛ بسبب مرارة الأسر.. مرارة العزلة عن النور والأمل.

عبد الله غالب البرغوثي... مقاوم لم يركع إلَّا لله تعالى، وهو صاحب أعلى حكم بتاريخ القضية الفلسطينية، المحكوم بـ 67 مؤبداً وخمسمائة عام.. فداءً لفلسطين والقدس.. وابتغاءً لمرضاة الله عزّ وجلّ.

الإهداء

أهدي رواية الماجدة إلى:

أمي صفاء سعيد البرغوثي.. التي كنت سبباً في جعلها تعيش معاناةً أقسى وأصعب من معاناة الماجدة، عندما خضت معركتي التي ما زالت مستمرة مع العدو الصهيوني حتى اليوم...

وأهديها إلى كل أمّ ودّعت شهيداً أو شهيدةً.. إلى كل أمّ أسيرٍ أو أسيرةٍ...

وأهديها إلى سيدة الإعلام المقاوم ابنة القسام... أحلام التميمي...

وإلى أختيّ ريم وفائدة البرغوثي اللتين جعلتا حلمي حقيقة عبر نشرهما لهذه الرواية...

الماجدة... ذكريات بلا حبر وورق

بداية النهايات

ها أنا اليوم أعود إلى دفتر مذكراتي لكي أدوّن بين طيات صفحاته الأخيرة نهاية أحلامي التي لم يتحقق منها أي شيء، تلك الأحلام البسيطة المتواضعة.. ضاعت لأنني لم أكن أملك القوة ولا الإرادة لكي أدافع عنها، وأناضل من أجل تحقيقها... فأنا مجرد فتاة ساذجة عادية المبادرة، مجرد فتاة رسموا لها دربها ودفعوها لكي تسير عليه... وسرت.

سرت وأنا مغمضة العينين، سرت إلى ذلك النصيب الذي لا مفرّ منه إلا إليه.. هكذا قالوا لي، أقنعوني فاستسلمت لإرادتهم، استسلمت لأحقق لهم أحلامهم التي كانوا يخططون هم لها.

أظن أنني غبية.. أو أن الغباء مني قد استيقظ عندما استيقظت صباح هذا اليوم... الذي أنهى بداية اثني عشر عاماً دراسياً.. اليوم سوف أقدّم آخر امتحان من امتحانات الثانوية العامة، وسوف أعود بعد ذلك إلى منزلي لكي ألقي ملابس المدرسة، ألقيها ليس استعداداً لشراء ملابس الجامعة، تلك الجامعة التي كنت أحلم أن أرتادها لكي أدرس في كلية الصحافة... لن أدخل الجامعة ولن أشتري ملابسها أيضاً، ما دمت لن أدخلها، لكني اليوم على موعد مع أمي وخالتي أم عوض، لكي نذهب سوياً وبصحبة ليلى زوجة أخي نجيب؛ لكي يشترين لي ملابس الزفاف، تلك الملابس ذات الألوان المتنوعة، والتي لم أعتد عليها من قبل، فأنا معتادة على اللون الأسود أو الكحلي أو حتى الرمادي، لكنهم اليوم يردْنَ مني شراء الملابس الوردية والحمراء، يردْنَ مني شراء الفستان الأبيض... فستان الزفاف.

لقد دبّرت ذلك كله ابنة خالتي ليلى، فهي زوجة أخي الأكبر، وأرادت أن أصبح زوجة أخيها الأصغر إسماعيل، تدبّرت ذلك منذ أعوام من خلال التلميح تارةً

والإقناع تارة أخرى، وذلك من خلال تصوير أخيها إسماعيل على أنه الفارس الآتي على حصانٍ أبيض لكي أركب خلفه، وأحلّق على ظهر الحصان الأبيض المجنّح في سماء تحقيق الأحلام.

تلك الأحلام التي لم أرَ بينها أحلامي أنا ماجدة الفتاة التي رغبت بأن تصبح صحفيّة لكي تطارد الفساد، وتفضحه من خلال صفحات الصحف اليومية، ومن خلال صفحات مواقع التواصل الاجتماعية في الشبكة العنكبوتية، أو من خلال أوراقٍ أكتب عليها الحقيقة لكي ألقي بها في ساحة مدرستي محذرة الطالبات من أنّ الحلوى التي تباع في مقصف المدرسة هي حلوى منتهية الصلاحية.

حدث ذلك قبل أعوام عندما عملت في مقصف المدرسة، فوجدت أن معظم الحلوى التي كانت تباع للطالبات منتهية الصلاحية، وأن صلاحيتها تقارب على الانتهاء، فعدت إلى منزلي في ذلك اليوم، ليس لأكتب ما رأيت في دفتر مذكراتي بل لكي أكتب ما رأيته على أوراق كثيرة قمت بنشرها في ساحة المدرسة... وما أن فعلت، حتى تعالت أصوات الطالبات، فأغلق المقصف وأتلفت الحلوى الفاسدة.

فعلت ذلك بصمت، ولم أكشف عن ما فعلت إلاّ بعد عدة أيام عندما كتبت ما حدث في دفتر مذكراتي، ذلك الدفتر الذي أكتم بداخله أسراري.. وأحلامي.. وحتى تطلّعاتي إلى المستقبل.

حُرمت من تحقيق تلك التطلّعات لكي أحقق تطلعات ليلى، تلك الليلى الخبيثة الماكرة، المتسلطة أيضاً، فعلى الرغم أن أخي نجيب هو أكبر إخوتي، إلاّ أنه رغم قوته وهيبته بيننا، فهو ألعوبة بين يدي ليلى تحرّكه كما تشاء وترغب.

لقد كانت ليلى تملك من الدهاء والمكر الكثير، بحيث أنها كانت تدير مشروع زفافي مع أخيها بدون أن تظهر هي بالصورة بشكلٍ مباشرٍ أمام أمي.. أمي التي كانت لا تحب ليلى، ولا تحب ألاعيبها، فمنذ وفاة والدي، وليلى تحاول أن تكون هي سيدة المنزل، لكونها زوجة أخي الأكبر نجيب، إلاّ أن أمي كانت تُفشل مخططاتها بمساعدة أخي الأصغر ناصر وزوجته صباح وأختي فاطمة وزوجها

عبيدة، فقد كان هؤلاء ضد ليلى ونجيب، وضد أخي الأوسط إبراهيم وزوجته سميرة، فسميرة كانت تابعةً مخلصةً لأختها الكبرى ليلى.

أما أنا، فقد كنت الطفلة أو الفتاة الصغرى التي كانت ترى وتسمع، وكانت أيضاً تدوّن كل ما يجول بخاطرها في دفتر المذكرات.. ذلك الدفتر الذي كانت أختي فاطمة ما أن تنتهي من السلام على والدتي حتى تندفع مسرعةً نحو غرفتي لكي تقلّب به، لعلها تجد بداخله ما يساعدها على التصدي لليلى وأختها سميرة.

كانت فاطمة تجد الدفتر، وكانت تقرأ ما بداخله أيضاً، لكنها كانت دائماً ما تحتاج لي لكي أقرأ لها الرموز التي كانت تملأ السطور.. فقد كنت معتادة على أن أضع رمزاً ما بعد وقبل وبين كلامي الذي كنت أكتبه عما كنت أشاهده وأسمعه من مشاحنات يومية بين كلا الطرفين.

فقد كان والدي –رحمه الله– قد قام ببناء عمارة سكنية مكوّنة من أربعة طوابق، وقد سكن والدي مع والدتي ومعي أنا في الطابق الأول، وسكن أخي الأكبر نجيب وزوجته ليلى في الطابق الثاني، وسكنت أختها سميرة وأخي إبراهيم في الطابق الثالث، أما أخي الأصغر ناصر فقد سكن مع زوجته الطيبة صباح في الطابق الرابع.

لقد كان جوهر المشاكل يعود إلى رغبة وطمع ليلى في الحصول على الطابق الأول الذي كنت أسكنه أنا وأمي لوحدنا بعد وفاة والدي، لكي تحوّله إلى جزء من شقتها في الطابق الثاني، فيصبح مسكننا أنا وأمي قاعة استقبال لضيوف ليلى الكثر... أولئك الضيوف التي لم يكن باستطاعة ليلى استقبالهم لولا زواجها بأخي الطبيب نجيب قبل خمسة عشر عاماً.

فقبل أن تتزوج ليلى بأخي كانت تعيش في فقر مدقع، وكانت تنام مع أخوتها وأخواتها الثمانية في غرفة واحدة في أحد مخيمات فلسطين المحتلة، فقد عاشت عائلة خالتي أم عوض في مخيم جنين على مقربة من مدينة جنين في شمال فلسطين، ولقد كان وضعهم المادي صعب، بل صعب جداً، أما نحن فقد ولدنا وعشنا في دولة قطر، وهناك درس أخي نجيب الطب، وأخي إبراهيم الهندسة، وأخي ناصر الحقوق.. ودرست أختي فاطمة الأدب العربي، أما أنا فلسوء حظي قرر والدي العودة

إلى الأردن لكي يستقر بها هو وإخواني وأمي، وهناك في عمّان أكملت دراستي المدرسية، وهناك أيضاً زوّج والدي أخي نجيب فور إكماله لدراسته الجامعية من ليلى، وأتبع زواج نجيب بعام بزواج أخي إبراهيم من سميرة أخت ليلى وابنة خالتي في نفس الوقت...

أما أخي ناصر فقد رفض رفضاً قاطعاً الزواج من أخت ليلى وسميرة علياء، وأصر على الارتباط بزميلته في الجامعة صباح، وهكذا فقد كان أصغر إخوتي الذكور المتمرّد الأول الذي تبعته أختي فاطمة بعد أن رفضت الزواج من عوض أخو ليلى الأكبر، وأبلغت والدي بنية زميلها في الجامعة والأستاذ المساعد عبيدة التقدم لخطبتها والزواج منها، ولقد كان لها ما أرادت، وقد أحب والدي عبيدة كثيراً، خاصةً أنه كان أستاذاً مساعداً يحاضر في مسائل علوم أصول الدين الإسلامي، ولأن والدي إسلامي صاحب اسقامة، فلقد زوّج أختي فاطمة لعبيدة بمهرٍ عبارة عن دينار أردني واحد، ولم يشترط عليه سوى شرط واحد وهو أن يعامل فاطمة بما أمره ديننا الإسلامي السمح، ولقد التزم عبيدة طوال فترة زواجه من أختي فاطمة بذلك.. وطوال تلك الأعوام لم أرَ أو أسمع فاطمة تشكو من زوجها عبيدة، وحتى بعد وفاة والدي، فقد كان عبيدة أقرب لوالدتي ولي من إخواني نجيب وإبراهيم. أما أخي ناصر فقد كان هو الآخر مثل عبيدة وكانت زوجته صباح مثل أختي فاطمة، أي أربعة في مقابل أربعة، أما أمي فقد كانت لا ترغب في أن تغضب أحداً منهما، ولم تكن تريد أن تكون طرفاً مباشراً في الصراع... ذلك الصراع الذي كنت أظن أنه يتمحور حول الشقة التي كانت والدتي تسكن معي بها، إلاّ أنه كان أكبر من ذلك بكثير، فقد كان والدي قبل أن يتوفاه الله قد اشترى في مدينة جنين عدداً من قطع الأراضي الزراعية التي كانت مزروعة بأشجار الزيتون، وكان والدي أيضاً قد قام بشراء قطعة أرض كبيرة أنشأ عليها مصنعاً يعمل بعصر الزيتون وتعبئته، وكان إنتاج ذلك المصنع يصدّر إلى قطر، حيث كان والدي ما يزال يملك أصدقاءً يساعدونه على تسويق منتجات المصنع من زيت الزيتون.

وهنا كانت المشكلة، وكان الصراع، فبعد وفاة والدي أصبح عوض أخ ليلى هو الذي يدير المصنع في فلسطين بعد أن كان مجرد عاملٍ أو مشرفٍ على العمال.

فعلى الرغم من أن والدي كان قد استقر في عمّان، إلاّ أنه كان يسافر إلى فلسطين كلما تمكّن من الحصول على تأشيرة دخول من قبل قوات الاحتلال، وكان يمضي وقته في رعاية أرضه المغروسة بأشجار الزيتون، وفي صيانته وتطوير مصنعه ومعصرته.

أما اليوم، فقد أصبح العامل الجاهل هو من يتولّى إدارة ما بناه والدي، وأنفق عليه معظم ماله، وعلى الرغم من أن المصنع كان يدار أثناء غياب والدي من قبل مدير إنتاج، إلاّ أنه بمجرد وفاة والدي قام عوض بفصل هذا المدير بمباركة أخي نجيب وبدون استشارة أحد، ووضع عوض مكان ذلك المدير صديقاً له، ووضع نفسه مديراً عاماً على المصنع وعلى مزارع الزيتون أيضاً.

تركت ذلك الصراع على أوراق دفتر مذكراتي، وكتبت كلاماً يخص صراعاً من نوعٍ آخر، فقد رفضت اليوم أن أشتري تلك الملابس الوردية والحمراء والمزركشة، رفضت ذلك رفضاً قاطعاً، فلم أكن أتخيّل نفسي أنا الفتاة المنقبة أن أرتدي مثل تلك الملابس حتى ولو كان ذلك لزوجي.

لقد ارتديت النقاب قبل عام تقريباً، فقد جرّبت ارتداء نقاب أختي فاطمة، وأعجبني ذلك، وعندها طلبت من فاطمة أن تشتري لي نقاباً خاصاً على مقاسي، إلاّ أن فاطمة عارضت في البداية وقالت لي إن ارتداء النقاب يعني الالتزام الكامل بسنة المصطفى عليه السلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فإن الارتداء يجب أن يكون عن قناعة وليس تقليداً لأحد ما أو عناداً بأحد آخر.

أما أنا، فقد قلت لفاطمة أنني أردت ارتداء النقاب منذ مدة طويلة، منذ أن رأيتها ترتديه عندما كانت طالبة في كلية الآداب، إلاّ أن كل من كان حولي كانوا يرفضون هذه الفكرة تحت ذرائع متعددة، أمي كانت تقول لي أنني ما زلت طفلة صغيرة، أما ليلى فقد كانت تقول لي أنني طفلة صغيرة على ارتداء الحجاب، فما بالك بارتداء النقاب!.. تلك الليلى التي جاءت من مخيم جنين وهي ترتدي منديلاً على رأسها

مثلها مثل غالبية فتيات المخيم، وغالبية فتيات فلسطين... ألقت المنديل منذ زواجها بأخي نجيب وأخذت ترتدي الملابس السافرة التي تكشف كل ما يحظر الدين الإسلامي كشفه.. لم يمنعها نجيب فقد تمكّنت من السيطرة عليه بسرعة مذهلة، ولم يتدخل والدي ولا والدتي، فقد حاولا في البداية إلاّ أن إصرار ليلى ونجيب جعلهما يتوقفان عن محاولة جعل ليلى ترتدي ملابس ملتزمة، وقد لحقت سميرة أخت ليلى بركب أختها في مطاردة الموضة بعد أن تجاوزت غضب أخي الأوسط إبراهيم بضغطٍ من نجيب وزوجته ليلى.

رفضت أن أرتدي أو أشتري الملابس الملوّنة في ذلك اليوم، رغم محاولة ليلى المستميتة، بل أنني قلت لها أنني سوف ألغي زواجي من أخيها إسماعيل إذا ما أصرّت على جعلي اشتري تلك الملابس، مما جعلها تصمت وتكفّ عن الإلحاح... لم يكن صمتها ضعفاً بل كان مكراً، وهذا ما أدركته فيما بعد.

في اليوم التالي، لم يكن هناك مفر من شراء الثوب الأبيض استعداداً ليوم الزفاف والعرس.. ذلك العرس الذي أعدت الترتيبات له لكي يتم هناك بعيداً عن عمّان، هناك في مخيم جنين.. كتب الله لي أن أتزوّج من إسماعيل.. ذلك الإنسان الذي لم أكن أعلم عنه سوى القليل القليل.. فأنا لم أره ولم أسمع منه سوى بضع كلمات عبر الهاتف.. كلمات فصمت طويل يتبعه بضع كلمات ليعود بعدها الصمت... كل ما كنت أعلمه عن ذلك الإسماعيل أنه إنسان متدين يخاف الله، هذا ما كان يقوله والدي قبل أن يتوفاه الله. أما أمي فقد كانت تقول أن إسماعيل يختلف اختلافاً كلياً عن باقي أخوته، وأنه أقرب ما يكون لأخي الطيب ناصر.. ولكن كيف يكون مثل ناصر الذي اختار من أحبها لكي تكون زوجته؟ كيف يكون مثل ناصر، وناصر رغم طيبته إلا أنه عنيد يرفض الظلم؟ رغم طيبته فهو صريح لدرجة الوقاحة، فهو محامي يردد دائماً ذلك القول أنه يجوز للمحامي ما يجوز للشاعر من كسر قواعد النحو بغية الوصول لكمال بيت الشعر، أما أنا فلم أكن أدرك ما كان يرمز إليه أخي ناصر من وراء قوله ذلك.

وذلك الذي اسمه إسماعيل، أيعقل أن يتزوّج فتاةً لم يرها، ولم يعرف طباعها؟

أم أن أمه قالت له أن ماجدة فتاة جميلة هادئة صامتة وكتومة؛ ولذلك وافق وقرّر خطبتي ثم الزواج بي... ولكن أمي لم تقل لي أن ذلك الإسماعيل شاب جميل هادئ وصامت وكتوم، بل قالت لي أنه شاب فلسطيني أحب فلسطين، ومن منّا لا يحب فلسطين! أجبتها.. فقالت لي أنه مسلم أحب الإسلام ونصره.. فأجبت أمي.. ومن منّا لا يحب الإسلام ولا يحب نصرته أيضاً!.

لم تقل أمي أنه جميل أو أنه حسن المظهر، أيعقل أن يكون قبيحاً سميناً وقصيراً أيضاً...!، من ذلك الإسماعيل الذي يبدأ مكالمته الهاتفية بكلمة السلام عليكم، ويتبعها بجملة غبية فيقول: كيف حالك يا أختاه... أتقول لي يا أختاه وأنا خطيبتك أيها الغبي.. وأنا سوف أصبح زوجتك بعد أيام أتقول لي يا أختاه!، ما أن أسمع منه تلك الكلمة حتى أقول أن ذلك الإسماعيل غبي، لا بل أنا الغبية الحمقاء التي وافقت على الارتباط به.

حتى أختي فاطمة عندما سألتها عن رأيها في خطبتي من إسماعيل، قالت لي أنها سمعت أنه شاب متدين ملتزم بتعاليم دينه، ولكنها طلبت مني أن أتروّى قليلاً ريثما تسأل زوجها عبيدة... فجاء عبيدة بجوابه لها أنه لو كان لديه أخت في سن الزواج لما تردّد في تزويجها من إسماعيل، بل أن عبيدة أضاف على ذلك أنه قال أن إسماعيل ملاك يمشي على الأرض.

ملاك يمشي على الأرض؟؟ يبدو أنني سوف أقتنع بهذه الجملة، وخاصة بعد أن أحضرت لي خالتي أم عوض هديةً من إسماعيل قبل أيام عندما جاءت لتصطحبني إلى فلسطين، بعد شراء حاجيات العرس وبعد انتهائي من تقديم امتحان الثانوية العامة.

ذلك الملاك أرسل لي هدية... كانت مغلقة بإحكام شديد، حتى أنني ظننت أن بداخلها شيئاً مهماً بنظري مثل باقة ورد مجفف يُخشى على أوراقه أن تتأثر بسبب بُعد المسافة من جنين إلى عمّان، أو باقة من أوراق الشعر والنثر المليء بكلام الحب، أو أن تلك الهدية تحتوي على أصباغ للماكياج... ما أن أزلت الغلاف الأول حتى وجدت جملة واحدة مكتوبة بطريقة جعلتني أضع الهدية جانباً وأقف

متجمدةً بلا حراك.. فلقد كتب ذلك الملاك إسماعيل بقلم أحمر كلمة.. احذر توضأ أولاً فهذا كتاب لا يمسّه إلا المطَّهرون.

لقد أهداني ذلك الإسماعيل قرآناً.. ألا يعلم أنني أمتلك واحداً لا يفارق حقيبتي أبداً، وامتلك آخرَ لا يفارق الطاولة التي بجوار سرير نومي، فأنا أقرأ القرآن كل ليلة حتى يهدأ بالي، ويهنأ نومي، وترتاح روحي بذكر كلام ربي.

أيرسل لي قرآناً من جنين وأنا التي كانت تحلم برسالة معطّرة ومزيّنة بالورود ومليئة بالكلمات الجميلة!!.. يبدو أن إسماعيل قد اختارني لأنني منقبة أو لأنني أحافظ على أداء عباداتي الدينية، أو لأنني ذهبت إلى الحج عندما كنت صغيرة مع والدي ووالدتي، أو لأنني ذهبت في العطلة المدرسية الماضية مع أمي وأخي ناصر وزوجته صباح لأداء العمرة.

جميل ذلك القرآن الهدية التي وصلتني من إسماعيل، لكني كنت رغم تديني الظاهر إلاّ أنني ما أزال سطحية غبية، وهذا ما علمته فيما بعد، وبمجرد أن فتحته وجدت بداخله قد كتب: «رفقاً بالقوارير».. عندها علمت أنني غبية متسرعة، فقد كانت إسماعيل يقصد من وراء إرساله لكتاب الله لي كهدية، ومن خلال ذكره على الصفحة الأولى بجملة «رفقاً بالقوارير» أن إسماعيل أراد أن يكون القرآن هو الفيصل بيننا، وأن تكون سنة سيدنا محمد عليه السلام هي منارة دربنا.

لقد أراد إسماعيل من هذه الهدية الطيبة أن يجعلني أشعر بالطمأنينة وعدم الخوف.. ذلك الخوف الذي كنت أحسه مع اقتراب موعد سفري إلى فلسطين، ما عاد له وجود، فأنا ذاهبة إلى خطيبي وزوجي الذي ردّد قول سيدنا محمد عليه السلام: رفقاً بالقوارير.. عند زوجي الذي إن جار علي سوف أجعله يحكم بشرع الله بيننا.. هدأ قلبي وما عدت محتاجة لا لوردة ولا لرسالة مليئة بكلمات الحب والغزل.

وعلى الرغم من كل ذلك، فأنا ما زلت لا أعلم السبب الذي جعل إسماعيل يرغب بالارتباط بي.. أيكون السبب تلك المتسلّطة أخته الكبرى ليلى؟ أم يكون السبب يعود إلى محبة خالتي أم عوض لي؟ فقد كنت دائماً أرحّب بها عندما تحضر لزيارتنا في عمّان وكنت أرافقها إلى المسجد لأداء صلاة التراويح في رمضان.

أيكون تديّني هو السبب وراء تلك المحبة؟، أم يكون ميراثي الذي سوف أرثه بسبب وفاة والدي هو السبب؟؟.. بالنسبة لخالتي أم عوض لا أظن أن المال هو السبب، فهي من ذلك النوع الذي ما زال يحافظ على بساطته رغم تقدم الزمن، فهي ما تزال ترتدي الثوب الفلسطيني التقليدي، رافضةً الحداثة وانتهاج الموضة.

وهي لم تطلب من والدتي أي طلب يدل على أنها مادية، بل على العكس، فقد كانت تحضر معها من فلسطين عندما كانت تأتي لزيارتنا الكثير من الهدايا مثل الزعتر البلدي الذي يتطلب قطفه السير مشياً على الأقدام ساعات وساعات في الجبال، وكانت تحضر لنا السماق البلدي والمريمية أيضاً والبابونج، كل تلك الأعشاب كانت تحتاج لمجهود بدني كبير كانت تقوم به خالتي حباً لنا ولوالدتي.

إذاً خالتي لم تكن تسعى وراء ميراثي، ولا أظن أيضاً أن إسماعيل المتدين الملتزم الذي أهداني القرآن الكريم يسعى هو الآخر وراء الميراث، ولكني أكاد أجزم أن تلك المتسلطة ليلى هي من كان يسعى وراء ميراثي ومالي، ولكن كيف لم أكن أعلم! وليس لدي فكرة عن الطريق الذي ترغب ليلى بسلوكه من أجل الوصول إلى مالي وميراثي، هذا ما كنت أقوله بيني وبين نفسي، وهذا أيضاً ما كتبته في دفتر مذكراتي بشكل رموزٍ لا يعلم معناها أحد بعد الله إلا أنا.

ولقد علمت أختي فاطمة معنى تلك الرموز عندما سألتني عنها، وقد قالت لي بعد أن شرحت لها معنى تلك الرمز أنها ما عادت تخشى علي، بل أنها تعتبرني قادرةً على مواجهة أي تحدٍّ ما دمت قادرة على معرفة مصدر هذا التحدي.

قالت فاطمة لي أنني ما عدت الطفلة المدللة بعد اليوم، بل أنني قد أصبحت فتاةً ناضجةً وواعيةً أيضاً. أعجبني كلام فاطمة التي ورغم أنها تكبرني بعدة أعوام، ورغم كونها أماً لثلاثة أطفال، إلاّ أنها تتعامل معي وكأنني توأمها، وعلى الرغم من أنها قد درست الأدب العربي إلاّ أنها لم تكن تستعمل تلك الكلمات المتفزلكة والمنمّقة، تلك الكلمات المأخوذة من طيات صفحات كتب الأدب العربي.

كان مطلوب مني أن أنتهي من شراء ملابس وحاجيات العرس خلال أيام، ولكني كنت بطيئةً جداً في انتقاء حاجياتي، فقد كان ذوق أمي وخالتي أم عوض

يعود إلى ما قبل مائة عام تقريباً، وكان ذوق ليلى يعود إلى ذوق بنات ونساء جهنم أكيداً، والعلم بذلك عند الله عزّ وجلَّ.

ولذلك، طلبت من أختي فاطمة أن تصطحبني لوحدها لكي أكمل شراء حاجياتي، فذوق فاطمة قريب إلى ذوقي الملتزم باللباس الشرعي الإسلامي.

ما أن بدأت بالخروج مع فاطمة، حتى كنت أعود كل يوم وأنا محملةٌ بالكثير من الحاجيات والملابس الخاصة بالمتنقبات والمحجبات، والتي تخلو من ملابس الكاسيات العاريات أمثال ليلى وأختها سميرة... حتى عندما اشترت لي فاطمة ملابس الزفاف الملوّنة والمزركشة، فقد كانت تلك الملابس لا تخدش الحياء أبداً، بل كانت ملابس تراعي حياء المسلمة الملتزمة.

أغاظت تلك الملابس والحاجيات ليلى كثيراً، وحاولت الاعتراض على الكثير منها، إلاَ أنني كنت أردّ عليها قائلةً: لكم دينكم ولي دين... فكانت تصمت لأنها كانت تعلم أنها قد تجاوزت كثيراً في ملابسها الكاشفة الفاضحة.

أما خالتي أم عوض وأمي، فقد كانتا مسرورتين وسعيدتين؛ لأنني كنت أشتري الملابس والحاجيات بغض النظر عن ذوق تلك الحاجيات والملابس، فمجرد كوني أنثى فهذا يعني لدى أمي ولدى أم عوض رضاي عن الزواج، وهذا ما كان يهم كلتيهما، فلا أظن أن هناك أمّاً لا ترغب بأن تكون ابنتها سعيدة قانعة بزوجها التي سوف تتزوجه، وكذلك أم عوض كانت تحاول إرضائي وإسعادي بأي شكل، فهي خالتي وهي أم العريس أيضاً، حتى أن ليلى كانت قد أصبحت تشعر بالتهميش بشكلٍ ملحوظ، فقد كنا نتبادل الضحكات عندما كنّا نتحدث أنا وأمي وأم عوض وأختي فاطمة. أما عندما كانت ليلى تتحدث، فقد كانت لا تجد لآرائها آذاناً صاغية مني ولا من الباقيات.

يوم غدٍ، سوف تقيم أمي حفلةً عائليةً يحضرها الأقارب وأفراد العائلة من أجل توديعي؛ ولذلك طلبت من أمي أن لا أطيل السهر في هذه الليلة، وأن أنام مبكراً استعداداً لحفلة الغد، واستعداداً للسفر بعد يوم الغد.

قبل أن أتوجّه إلى غرفتي لكي أنام، أحضرت خالتي صحناً وبدأت تصب بداخله